قضايا جزائرية في رواية "بحثا عن آمال الغبريني" لإبراهيم سعدي

د . بوشريخة حورية
جامعة: الجزائر 2

ملخّص:

تقدم الرواية الجزائرية على مر عصور ظهورها وتطورها أوجها متعددة للبلاد الجزائرية في خضم ما يحيط بها من ظروف متباينة انطلاقا من الفترة الاستعمارية وتكالب الأنظمة المختلفة لاحتوائها في حقبة ما بعد الاستقلال وانتشار المظاهر السلبية التي خلفها الاستعمار وما أعقب فترة الاستقلال من إصلاحات خاصة فيما يتعلق بالثورة الزراعية... ثم جاءت السنوات الحمراء التي اختلط فيها الحابل بالنابل وغدا الرعب السيد الأول الذي يدفع بالأخ إلى أخذ الحيطة من أخيه نظرا لاختلاف وجهات النظر حول القضايا السياسية والاجتماعية التي تعيشها البلاد...

وفي هذا المجال تسير رواية «بحثا عن آمال الغبريني» لإبراهيم سعدي إذ تقدم لنا شخصية رئيسية تركض خلفها شخصيات عديدة وهي ذات سمات وحضور يرفعها عن الواقع ويقربها إلى الرمز، وفي الوقت ذاته يبدو الوضع عاجّا بالإرهاب الذّي يدفع بالصديق إلى الشك في صديقه... في حين تعيش الطبقة المثقفة الجزائرية آنذاك نوعا من الضياع النفسي والوضع الاجتماعي المزري مما يؤدي بها إلى نهاية مفزعة... وكل هذه الظواهر وغيرها هي جانب من جوانب أنا الجزائر في مواجهة التغيرات العالمية المتلاحقة التي لم يفلت منها الجميع، وهذا ما يبدو وخلال مداخلتنا هذه.

«يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي»[1] وهي صفحة لم يولها أصحابها من الأهمية المستحقة، ناهيك عن الدارسين العرب الذين هم دوما في شغل شاغل عن مستجدات الساحة الأدبية المغاربية بصورة عامة، والجزائرية بصفة خاصة. ولقد «عاش هذا الأدب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي، وكانت صلة الجزائر

بأوروبا – بحكم موقعها وسياستها – من أسبق الصلات التي نشأت بعد ذلك في الشرق العربي، فاستفادت من الصلة تجاريا وحربيا وإداريا...»[2].وتعدّذلك إلى الامتزاج السكاني والثقافي والحضاري – أحيانا- .

غير أن الجنس الأدبي الأكثر استيعابا لهذه المستجدات الحضارية وللتغيّرات السياسية والاجتماعية المتلاحقة بسرعة البرق هي الرواية، ومع أن هذا الجنس الأدبي قد تأخر ظهوره في الجزائر بسبب « التقاليد الأدبية التي كانت تقاليد محافظة تكاد تحصر الأدب في الشعر والمقالة الأدبية...[3]». إلا أن الرواية استطاعت بعد ظهورها أن تخطو بخطواتها العملاقة لتعبّر عن الواقع الجزائري المعيش، فتكون مرآة ساطعة لمختلف الأوضاع التي تعيشها الجزائر في ميادين متباينة، اجتماعية منها واقتصادية وسياسية...الخ».

ومن بين الروايات التي لفتت انتباهنا في هذا المجال، رواية«بحثا عن آمال الغبريني»[4] لإبراهيم سعدي، وهي الرواية التي استعصت على بعض النقاد إذ لم يتوصلوا إلى ما أراد كاتبها أن يقوله من خلالها. يقول عنها الدكتور أحمد منور:" لقد وجدت نفسي بعد ما انتهيت من قراءة رواية إبراهيم سعدي الأخيرة « بحثا عن آمال الغبريني»أتساءل ماذا أراد الكاتب أن يقول في نهاية الأمر ؟ وأعتقد أن معظم من قرأها أو سيقرؤها سوف يطرح على نفسه هذا السؤال »[5].

ومرد ذلك الإبهام حسب نظر هذا الناقد إلى النهاية المأساوية والعبثية التي آل إليها بطلها وناس خضراوي، وهو يبحث عن طالبته الجامعية السابقة آمال الغبريني مفتشا عنها في كل مكان. إنه تعقب أثرها سعيا خلفها من البليدة إلى تونس وإيطاليا ثم الجنوب الجزائري، وأخيرا أفريقيا، ولكن دون جدوى، وهو المريض الحامل كيس أدويته معه أينما حلّ، يتقيأ كل ما يأكله بسبب قرحته المعدية، فيموت من شدة الإرهاق والقنوط في قرية من قرى جمهورية مالي[6] دون أن يصل إلى ضالته « آمال الغبريني».

إن قراءة متأنية ومكررة لهذه الرواية، يمكن أن تكشف لنا بعض الأغوار المستعصاة على متلقيها للوهلة الأولى باعتبار أن الرواية هي سرد لوقائع الحياة « بإعادة صيغها التعبيرية عن طريق تخييل الحياة اليومية و...

هي إجابة سردية عن الإنسان بوصفه واقعا في القصة نفسها كون الخيال السردي أو التخييل الحياتي بعد من أبعاد فهم الذات »[7].

انطلاقا من هذه المقولة، نلاحظ أن رواية « بحثا عن آمال الغبريني» لكاتبها إبراهيم سعدي تقدم لنا عدة قضايا وآراء متباينة عن الوضع الجزائري السياسي الذي يحتضنه زمن قص الأحداث الروائية، زيادة عن الصورة الاجتماعية لمناطق جزائرية في حياتها العادية اليومية وطبيعتها الجغرافية والثقافية ... قبل أن نصل أخيرا إلى محاولة فك لغز «آمال الغبريني»نفسها وأسباب ركض وناس خضراوي خلفها ركضا متواصلا من مكان إلى آخر.

تصور هذه الرواية – بحثا عن آمال الغبريني « سنوات الإرهاب أو السنوات الحمراء» كما يسميها الكثير من الناس، حين حاولت الجماعات الإسلامية اعتلاء كرسي الحكم بشتى الطرق، فأخفقت في ذلك، وفشلت فشلا ذريعا لأن هناك قوى أخرى وقفت لها بالمرصاد، فكان نتيجة ذلك الإخفاق تصفيات الحساب عن طريق الذبح والقتل العشوائي والتهديد والوعيد، وتنفيذ هذا الأخير بوسائل مختلفة لا تخطر للمرئ على بال.

يتحدد في الرواية الإطار المكاني للأحداث الإرهابية بأنه في الشمال، ذلك أن المهدي المغراني وهو من الفئة المثقفة قد وصلت إليه رسالة، بل هي ورقة « وجدها ذات يوم أسفل باب منزله وقد رسم عليها تابوت كتب عليه «المهدي المغراني»[8]، منذ ذلك الحين غادر المهدي المغراني الشمال فارا بحياته نحو الجنوب وبالضبط نحو فندق، حيث كانت في انتظاره مغامرات أخرى.

من جهة أخرى، وفي الجنوب يطلعنا السارد عن طريق عنصر القص على فصل المهدي المغراوي عن عمله لانقطاعه عنه،بينما يصل إليه خبر ذبح صديق له بطريقة بشعة، فكان الرأس في مكان والجثة في مكان آخر مفصولين عن بعضيهما[9].

كما يطلعنا على بعض الأخبار الإجرامية المتصلة بالعمليات الإرهابية، وقد نشرتها الجرائد، فكان منها ما يتعلق بالحراش، إذ تم هناك إبطال مفعول قنبلة سطروا تفجيرها في « بومعطي» أين يتواجد البيت الذي كان يضم المهدي المغراني، ويستغل إبراهيم سعدي هذه الجريدة التي

وصلت إلى الصحراء من الشمال ليقدم لنا لوحة صادقة عن قذارة الأيدي المخربة للبلاد والمرعبة للناس بأعمالها الإرهابية المتوحشة يقول فيها: " مدينة معسكر لا تزال تحت الصدمة بعد إبادة عائلة بلباشير عن آخرها. المجزرة التي ارتكبها الإرهابيون أدت إلى مقتل 20 ضحية واختطاف مراهقين في حاجز مزيف بالمكان المسمى «ولاد سيدي عمار». الإرهابيون الذين كانوا يرتدون زي رجال درك رشوا سيارتي العائلة العائدة من الشاطئ بالبنزين، وأشعلوا فيها النيران، عندها راح كل فرد من أفراد العائلة يحاول الهروب من السيارتين المحترقتين بتحطيم زجاجهما، لكن الإرهابيين كانوا في انتظارهم في الخارج بالسكاكين والسواطير التي انهالوا بها عليهم قتلا وذبحا وتنكيلا "[10].

إنها لوحة دامية تنم عن اللاإنسانية التي وصل إليها بعض البشر آنذاك في تصفيتهم للحسابات مع أناس لا علاقة لهم لا بالسياسة ولا بأصحابها، فالذبح والقتل ورمي الرؤوس في أي مكان غدا السيد الأول في الحياة اليومية الجزائرية في تلك الفترة.

إن الحيز المكاني لظاهرة الإرهاب يحدده إبراهيم سعدي منذ البداية بالشمال من العاصمة «بومعطي» و«الحراش»، وينزل قليلا ليصل إلى الداخل، إلى مدينة معسكر وغيرها من المدن، وحين يمتد هذا الحيز ليصل إلى الصحراء، وبالتحديد إلى الفندق الذي يضم المهدي المغراني،تضحى ظاهرة الإرهاب كالبقعة من الدم التي تهطل وديانا وتنتقل من مكان إلى آخر حتى تعم الحيز الجغرافي لأرض كاملة هي الجزائر. لقد قتل الرجل الأفريقي «موديبو برارا توري» وعشيقته هناك في فندق الجنوب، فلم تعد أية رقعة آمنة أمام عيني المهدي المغراني، فيقرر العودة إلى الشمال، ربما إلى حتفه لأن لا أمان له في أي مكان.

بالإضافة إلى هذا الوجه من الجزائر إبان هذه المرحلة الدامية، يطلق إبراهيم سعدي العنان لقلمه الروائي لتقدم لنا روايته « بحثا عن آمال الغبريني » بعض تبعات الإرهاب التي كان منها ارتداء الكثير من النسوة آنذاك للحجاب، ليس حبا فيه وإنما خوفا ورعبا من القتل والتشويه الجسدي الذي كانت تلجأ إليه بعض الفئات من قطاع الطرق والمدعين للإسلام أو حتى الفرق الإسلامية المغالية في اعتقادها الديني. ففي المطار يرى المهدي المغراني امرأة محجبة، والراوي نفسه يستعرض في أحد مقاطعه

الحوارية صورة آمال الغبريني مرتدية الحجاب، متأففة منه لكونها وضعته رغما عنها وهي المرأة المتحرر،ة من أصل أم فرنسية، فهي تقول عن نفسها مخاطبة مصطفى نوري «انظر إلي، هذه قطرة من غيث، أنت تعرفني، مصطفى، أنا عشت دائما حرة اليوم أنا خائفة »[11].

هي خائفة من الأحداث المرعبة، ومن زوجها الثاني «بوجمعة» الذي اكتشفت بأنه عضو في الجماعات المسلحة حيث كان يمارس عليها كل أنواع العنف حتى اعتقل وقتل،فاختفت هي الأخرى بعد ذلك.

من جهة أخرى، كان من أهم عوامل الإرهاب أن الإنسان الفارّ لا يترك خلفه ما يدل عليه وعلى وجوده من ممتلكاته، خاصة الملازمة له، ومن ذلك أن المهدي المغراني قد تخلص من سيارته ببيعها في الجنوب، لأن من يعرفه حتما سيدركه عن طريق سيارته التي هي عنوان تواجده في أي مكان يحل به.

لقد خلفت ظاهرة الإرهاب وراءها مجموعة من الأوضاع المتردية والسلوكات غير الاعتيادية والشاذة، فغدا كل واحد يصفي حسابه مع الآخر بالشكل الذي يحلو له معلقا ذلك على حائط ما يحدث في البلاد، وإبراهيم سعدي يقدم لنا بعض هذه السلوكات عبر استرجاع وناس خضراوي للزمن الذي سافر فيه إلى وهران برفقة آمال الغبريني، وقد دلهما ضابط عسكري على أحد الفنادق الكائن بالمدينة باعتبار أن صاحبه أحد أصدقائه،لكنه بعد ساعة روّعته دقات عنيفة على باب غرفته ليلفي أمامه ثلاثة أشخاص أحدهم صديق الضابط، وقد أمسك بكلب ضخم في يده وهو يصرخ مجيلا ببصره داخل الغرفة « ضاجعتها يا ابن العاهرة ...»[12].

يوحي هذا الخطاب الروائي فيما يوحيه بالنظرة المنحطة للمجتمع إزاء المرأة فمع أن علاقة وناس خضراوي بآمال الغبريني لم تتعّد الحب الشريف والأبوة إن صح لنا قول ذلك لأنه سعى إلى ترويجها، وكان شاهدا على ذلك مرتين إلاّ أن امرأة ورجل في فندق في نظر العامة تعني مباشرة المضاجعة.

كما يشير هذا الخطاب إلى انعدام الحرية والأمان في أي مكان في تلك العشرية السوداء المضمخة بالدم والجثث في كل صوب، حتى غدا الأخ يشك في أخيه ومجرد البحث عن شخص ما معناه القصد إلى تصفيته ومحوه من الدنيا، فلما بيّن وناس خضراوي أمام المهدي المغراني أنه إنما جاء إلى الصحراء بحثا عن شخص ما يقول الراوي في هذا الشأن: «عدة أسئلة مرت

بذهن المهدي: من يكون هذا الشخص؟ لماذا يبحث عنه؟،أمن أجل أن يقتله، ما دام أن كل واحد اليوم صار يسعى إلى قتل أخيه...»[13].

وقد نتج عن هذا الرعب من الغير تغيير بعض الشخصيات لأسمائها الحقيقية وحملها لأسماء جديدة مستعارة، من ذلك وناس خضراوي نفسه فاسمه الحقيقي هو «مصطفى نوري»، وهو أستاذ جامعي، فإذا عرفنا أن الفئة المثقفة كانت مستهدفة آنذاك، زالت دهشتنا لذلك التكتم، وتلك السرية التي بدا عليها وناس خضراوي في الجنوب، فهو يصادق المهدي المغراني ويمدّ له هذا الأخير يد المساعدة في كل شيء،لكنه ينكره حين يطرق بابه وينادیه باسم مصطفى نوري، إذ ردّ عليه باستنكار شديد:

- « هذه ليست حجرة الأستاذ مصطفى نوري.
- عفوا، أعنيك أنت، وناس.
- هذه ليست حجرة مصطفى نوري، قلت لك.
- وناس، افتح الباب، أنا المهدي.
- لا أعرف شخصا اسمه مصطفى النوري، ألا تفهم ؟
- بلى، لكن افتح الباب »[14].

لكن وناس صمت، لم يفتح الباب، ولم يفه ببنت شفة، مما دعا بالمهدي المغراني أن يعود أدراجه إلى غرفته ويواصل شربه لخمرته.

ومع هذا الاستنكار، فإن الكاتب يدرج مواقف يربط فيها بين المثقفين ربطا إنسانيا رائعا، فالمهدي المغراني يأخذ بيد وناس خضراوي في مواقف عديدة فيزوره في المستشفى، ويقدم له النصيحة بأن يرفق بنفسه ويعتني بصحته، ويرافقه في رحلة استكشافية إلى الصحراء... فلقد «أحس أيضا بعاطفة ما نحوه، عاطفة أكثر ما تكون قربا من المودة »[15]. ورغم ذلك، فهو قد أخذ حذره منه في الأول خوفا من ألاّ يكونا في تيار واحد أو يحملا أفكارا متشابهة، إذ يقول الراوي « فكر المهدي أن يسأله كيف هي الأوضاع في الشمال، في البليدة أساسا، لكنه لم يجرؤ. لم يكن بوسعه بالطبع أن يحزر موقفه ممّا كان يجري في البلاد، ربما ليسا في صف واحد »[16]، وقد كان وناس خضراوي يدعى بالغريب أيضا قبل أن يقدّم نفسه للمهدي المغراني بعد ذلك.

وإذا كانت ظاهرة الإرهاب تنخر المجتمع الجزائري شمالا، فالجنوب كانت تنخره ظاهرة أخرى سلبية بدت في الحوار الذي دار بين المهدي

المغراني ووناس خضراوي عن السفر عبر الصحراء إلى أفريقيا وما يكتنفه من مخاطر:

- «السفر عبر الصحراء إلى إفريقيا من أصعب ما يكون خصوصا هذه الأيام.
- لماذا الأخ المحترم ؟
- بسبب حركات التمرد والمهربين والخارجين عن القانون والوباء وغير ذلك...»[17].

إنها ظاهرة التهريب وانتشار قطاع الطرق والمتمّردين، الخارجين عن القانون الذين يدرعون الطرقات الصحراوية ويتصرفون بصعلكة وبحرّية تامة ضاربين بالقوانين عرض الحائط وهم أيضا كانوا كالدودة المفسدة للقش ويكمل إفسادهم الوباء، ذلك المرض الذي يودي بحياة المئات من الذين يحط رحاله في أجسامهم ولا يتركهم إلا أجسادا هامدة كحال فعله بموح الشريف العامل بفندق الصحراء.

لقد خلفت هذه الظواهر السلبية ظواهر أخرى أكثر منها قتامة، منها هروب الناس إلى السجائر، فكان المهدي المغراني كلما صادفته مشكلة أو كتم أنفاسه الغاضبة هرب إلى السجائر يطفئ بها ظمأه إلى الأمان وإلى الحرية والحياة المستقرة وفوق هذا وذاك حاجته الملحة إلى ضبط أعصابه في مواقف كثيرة محرجة فترد مقاطع دالة على حالته تلك:

- «لا يدري إن كان ندمه ناجما عما ألمّ به من يأس أو من جراء تلك السحابة السوداء التي عبرت وجه خضراوي... حاجته إلى التدخين اشتدت أكثر، لكن تلك اللحظات كانت أقل اللحظات ملاءمة لكي يترك فيها غرفة خضراوي»[18].
- « دعنا من هذا الكلام، كرر، مخرجا سيجارة من علبة اللفائف، أشعلها وهو يشتمه في قرارة نفسه »[19].
- «مرة أخرى أحس المهدي بالرغبة في تدخين سيجارة، وخطرت له فكرة مغادرة غرفة الأستاذ...»[20].

زيادة على ذلك، فقد يكون المرسى من هذا الهروب هو تعاطي الكحول، فاحتساء كؤوس من الخمرة من شأنه أن ينسي صاحبه همومه وأحزانه ومشاكله ولو مؤقتا. يقول الراوي: « لم يستيقظ المهدي باكرا، غادرا السرير في حوالي الساعة الحادية عشر صباحا. لم يغمض له جفن

طوال الليل. كان قد كتب قليلا ثم شرب آخر قارورة نبيذ بقيت لديه ...»[21].

- «كان متعبا، راغبا في النوم، لذا أخذ زجاجة الخمر من الثلاجة وراح يشرب يشرب بينما وناس خضراوي يلفظ أحشاءه، والكلاب تنبح في الخراج وجسمه يرشح عرقا »[22].

فالخمرة قد تزيد من بؤس الإنسان عوضا عن التخفيف عنه، ومع ذلك فإن التخليعنها ضرب من المستحيل إذ تصبح عادة سيئة تنخر كيان متعاطيها وترمي به في غربة نفسية لا مخرج له منها.

وعلى هذا الأساس، نلاحظ في رواية «بحثا عن آمال الغبريني» سقوط الشخصيات في اغتراب متنوع خصوصا الاجتماعي منه الذي هو راجع حسب رأي إميل دوركايم Durkheim إلى تلاشي المعايير التي تربط الفرد بالمجتمع، أي إن المعايير التي يملكها الأشخاص لم تعد تجلب لهم الاحترام، الأمر الذي يؤدي إلى انشراخ العلاقة بينهم وبين محيطهم[23]، أو تغيير مظاهرهم بما يلائم أهواء السواد الأعظم من الناس، كذلك خرجت جماعة من الإخوة المسلمين عن التقاليد الجزائرية المعهودة إلى تقاليد أخرى غريبة عنا كل الغرابة، وكذلك عادت بشكل ما، بعد الحصار الذي فرض عليها. يقول السارد في ذلك عن بوجمعة زوج آمال الغبريني الثاني وجماعته: «...لما رأى الأستاذ مصطفى نوري بوجمعة بعد الإفراج عنه مع غيره من مناضلي « الفيس » من معتقل الجنوب، أحس بأن شيئا ما تغيّر في زوج آمال، شيء يصعب رأبه، شيء انكسر مخلفا آثارا عميقة ومحيرة، كما لو أنه خرج من تجربة لا يمكن الإنسان بعدها أن يظل كما كان...ذلك الشيء الذي انكسر فيه بدا أنه مس أيضا علاقته به، هو الأخ المزيف، وبكل شيء في الحقيقة بما في ذلك على الأرجح...لكن في الواقع أحس بأن لا شيء سيبقى كما في الماضي»[24].

وحتى حين شاهد مصطفى نوري بوجمعة في مظهر اعتيادي بدا له الأمر مزيفا وغير عادي، فلقد «وجد بوجمعة حلق اللحية، ضامر الوجه، قاسي الملامح، مرتديا ملابس أوروبية، في بيته ألفى أشخاصا آخرين جاءوا بدورهم لتهنئته على خروجه من المعتقل، جيران ومناضلون دخلوا السرية بعد حل حزبهم، فاضطروا إلى حلق لحيهم والتخلي عن ملابسهم الأفغانية... الحق أن الأستاذ مصطفى نوري أحس بنفسه غريبا بينهم... في تلك اللحظات

اكتشف كيف صار بوجمعة ينظر إليه ليس من معسكره وإنما من معسكر الذين حكموا عليه بالحبس في معتقل الجنوب. طالبته السابقة أيضا شعرت بنفسها غريبة ضائعة لا تدري ما تفعل ...»[25].

من هذا المنطلق، حدث الانشراخ بين علاقات بوجمعة ومصطفى نوري من جهة وبين آمال الغبريني وزوجها بوجمعة من جهة أخرى، وبين هذه الجماعات الإسلامية التي اعتنقت أفكارا ومبادئ غريبة عن الساحة الاجتماعية الجزائرية وبين عامة الناس من ذوي الأفكار البسيطة، المتشبثين بآرائهم وتقاليدهم التي لا يمكن لرياح التغيير أن تجرفها بسهولة.

إن الاغتراب مرض يتصل «بتصدع الذات أو انشقاقها نتيجة لعدم تواؤمها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه »[26]. فتضافر تغيير المعايير مع تصدع الذات في المجتمع الجزائري لترمي بالفرد في اغتراب نفسي قاتم. يقول المهدي المغراني متحدثا إلى وناس خضراوي في أحد المواقف :

" لا، لا، غدا سأبحث عنه من جديد، قال المهدي، شاعرا كما لو أن شخصا آخر كان يتكلم نيابة عنه، لا يدري كيف تسرب إلى داخله واستولى على لسانه "[27].

ويقول المهدي المغراني في قرارة نفسه عن موح شريف، الرجل العامل في استقبال الزبائن بفندق الجنوب " إذا كان موح شريف نفسه صار يثير الحيرة، فلا شيء ظل على حاله، لا شيء لم يهتز ولم يتهدم في هذا الزمن "[28].

وتشتد هذه الغربة فتضحى تجاذبا بين عواطف متباينة تربط بين بعض شخصيات الرواية في الوقت نفسه إذ يقول المهدي المغراني واصفا عواطفه اتجاه وناس خضراوي التي يتجاذبها الحب والكره في الآن ذاته: " إنه لا يفهم حقيقة مشاعره نحوه. لا يعرف إن كان يحس نحوه بالحب أو بالبغض أو بهما معا. قلقه من فكرة الرحلة لم يفتأ يتفاهم بمرور الوقت ..."[29].

وقد يتعد هذا الاغتراب النفسي إلى الإحساس بضيق المكان أو الاغتراب عن الحيز المكاني نفسه لارتباطه بحالات شخصية صاحبه، أحاسيسه، صحته أو مرضه انقباضه أو انبساطه فيقول الراوي عن موقف المهدي المغراني إزاء غرفة وناس خضراوي الذي لا يفتأ يتقيأ أحشاءه من جراء قرحته المعدية: «أما المهدي المغراني فقد شعر برغبة في تدخين سيجارة، لكن غرفة الأستاذ بدت له مثل غرفة من غرف المستشفى»[30].

إن غياب الصدق العاطفي في لغة التخاطب بين الناس يراه جوفمان Goffmanنوعا آخر من أنواع الاغتراب[31]فوناس خضراوي يخفي اسمه الحقيقي – مصطفي نوري – ويخفي شخصية المرأة المبحوث عنها، والآخر يكتم عنه حقيقة مشاعره في مواقف عديدة، فهذا معناه إحساس كل فرد باغترابه عن الآخرين نتيجة سطحية التعامل معهم.

هذه وغيرها من الظواهر السلبية التي عششت في الساحة الحياتية الجزائرية كانت نتيجة للانفتاح المبالغ فيه على العالم الخارجي، العالم الذي كان الريح الذي يسوق إلى بلادنا ريحا صرصرا عاتية أتت على الأخضر واليابس في الوقت الذي كانت فيه كالجنين الخارج من بطن أمه، فبعد تجربة مريرة مع الاستعمار الفرنسي حطت عليه ظاهرة الإرهاب مخلفة وراءها آفات اجتماعية وظواهر سلبية لا حصر لها. فيرى وناس خضراوي أن انفتاح آمال الغبريني الزائد عن حده هو الذي يجرها إلى مصائب غير متوقعة في معظم الأحيان.

زيادة على هذا، تبدي لنا رواية " بحثا عن آمال الغبريني« ظاهرة نزوح الأفارقة باتجاه الجزائر، وتجمعهم هناك في فندق الجنوب حيث موديبو برارا توري، وفي المقهى يجلس المهدي المغراني برفقة وناس خضراوي، ومع أن المقاهي هناك كانت قليلة الزبائن فالمقهى»الذي دلفا إليه لا يشذ عن القاعدة، لكن مجموعة من الزبائن الأفارقة المحيطين بإحدى الموائد كانوا يتكلمون بصخب محدثين جوا يثير الشعور بنوع من الاكتظاظ»[32]. وهؤلاء الأفارقة أيضا قد يثيرون الشغب ويمثلون دورهم في انتشار الدعارة والمتاجرة بالأعراض وحتى القتل البشع من أجل المال أو من أجل أتفه الأسباب إذ اقتيدت «ليليانا»من قبل الشرطة إثر مقتل الأفريقي وعشيقته بفندق الجنوب.

وفيما عدا هذه المناظر المفزعة من إرهاب وقتل وبؤس، يقدم لنا إبراهيم سعدي في هذه الرواية صورة حية عن الحياة في الصحراء الجزائرية، وما يحيط بها من موت وشقاء وحرمان ويبدو هذا جليا خاصة في قول الراوي «كان المهدي المغراني يفكر في «آمال الغبريني » وبالضبط في ذلك اليوم الذي قضاه في الصحراء مع آمال. صور من تلك الرحلة راحت بغتة تتلاحق في ذهنه: أشجار الأكاسياس التي كساها الغبار بلون الرماد المنتصبة وسط مشهد يوحي بالفراغ والموت، بيوت من الطوب لا ماء فيها ولا كهرباء،

وذلك الرجل الملثم، الأسود البشرة، مثل بقية سكان ذلك المكان الضائع الموجود خارج الزمن، الذي يصنع خواتم نحاسية في الجانب المغطى بالظل من محله ذي المدخل العديم الباب. قبور يتجاوز طولها المترين ونصف المتر التي قيل لهما أنها من بقايا زمن العمالقة، الأطفال شبه عراه ذوو الأجسام الضامرة، المغطاة عيونهم وأفواههم بالذباب والصمت والبؤس... بقايا المعتقل الذي سجن فيه أنصار الجبهة الإسلامية بعد إيقاف المسار الانتخابي»[33].

هذه الصورة عن الصحراء الميتة بأناسها الأشقياء تشير بأصابع الاتهام إلى الساسة والساهرين على مصالح الدولة الجزائرية بأنهم المسؤول الأول عن هذا الإهمال والتأخر والبؤس الذي يعانيه بنو جلدتهم وأرضهم في الجنوب.

من جهة أخرى، تحلينا هذه الرواية وعبر سطورها السردية إلى القاموس اللغوي الجزائري الذي غزته ألفاظ غربية فدخلت إلى لهجته العامية وتربعت وسط الفصحى بعد أن وجدت مكانا فسيحا لها وذلك بفعل الرواسب الثقافية الفرنسية التي بقيت بعد الاستقلال ولم تقدر الحرية نفسها على إزالتها منذ ذلك الحين فكان من بين هذه الألفاظ:«كاسكيتة»،«حذاء الباسكيت »، «الديكور»، «المافيا»، «ا لجنرالات »، «هدير محرك اللاندروفير»، «الريتووفيزور»، «مقاعد بلاستيكية»...الخ »[34].

إن هذه القضايا والصور كلها التي عرضها علينا إبراهيم سعدي في روايته هذه تدفعنا إلى القول بأن " الخيال لا يكتمل إلاّ بالحياة، وأنّ الحياة لا تفهم إلا من خلال القصص التي نرويها عنها، إذن فالحياة المبتلاة بالعناء هي حياة تروي "[35]، وأحسن جنس أدبي يمكن أن يسعها ويحتمل روايتها بالتفصيل هي الرواية.

على أن مغاليق رواية " بحثا عن آمال الغبريني" لم تفتح أمامنا كلها، فالدكتور أحمد منور بقي طارحا سؤاله عما أراد مؤلفها أن يقوله من وراء السعي الحثيث لوناس خضراوي خلف آمال الغبريني من مكان إلى آخر حتى يلقى حتفه من دون أن يحقق مبتغاه.

يلتقي إبراهيم سعدي في روايته " بحثا عن آمال الغبريني " كثيرا بعبد الحميد بن هدوقة في روايته " الجازية والدراويش " وبكاتب ياسين في روايته

"نجمة "، فهذه الروايات الثلاث تدور حول شخصية نسوية مجهولة الأب، وإذا كانت الجازية ذات أب قتل بألف بندقية ودفن في حناجر الطيور فربتها عجوز، فإن نجمة كاتب ياسين وآمال الغبريني تعودان إلى أصول فرنسية من جهة الأم وكل واحدة ربتها عجوز أيضا.

إن النساء الثلاث نجمة، الجازية، وآمال الغبريني كل واحدة هفا إليها ودار حولها أربعة رجال والأربعة في حد ذاته هو رمز الانسجام الحال في الكون والذي يظهر في الفصول الأربعة والجهات الأربع والعناصر الأربعة المكونة للحياة وهي الهواء والنار والأرض والماء...الخ[36] مما يوحي بنضوج هذه الشخصيات النسوية واكتمال تجربتها، فهي بحاجة إلى قوة جبارة خارقة تنتشلها من أوضاعها المزرية وتخرجها إلى عالم حقيقي وضاء.

لقد تزوجت آمال من أمقران، شاب من إحدى العائلات ولم يدم هذا الزواج سوى عامين ثم تزوجت من بوجمعة، وقد كان عضوا في الجماعات الإسلامية، فكان مصيره الهلاك، وبقيت آمال يتجاذب حبها المهدي المغراني ووناس خضراوي الذي سعى إلى حتفه من أجلها. هما شخصان مثقفان، الأول منهما كتب روايته عن آمال الغبريني والثاني لم يراع صحته المتدهورة فسافر خلفها من مكان إلى آخر.

لقد رافقت آمال الغبريني المهدي المغراني إلى الصحراء وجالسته في رحلته تلك كما كان ملاذها أيضا وناس خضراوي، تلجأ إليه كلما حلت بها محنة ما.

يصور إبراهيم سعدي سكان الصحراء يرقصون فترقص معهم آمال الغبريني فكانت تلك صورة فنية رائعة، إذ يقول عنهم «رقصات التوارق بلباسهم الأسود والأزرق ووجوههم الملثمة، وبسيوفهم المقوسة، والنسوة الجالسات حولهم يزغردن ويصفقن ويضربن على الطبل. آمال وهي تصفق، لكن بهدوء ومع شيء من الشرود... راقصوا فرقة قراقيب الولي سيدي بلال وهم يشطحون على إيقاع رنات آلاتهم النحاسية مرددين اسم الله واسم الرسول، مثيرين الغبار تحت أقدامهم. النساء الجالسات على الرمل، المتمايلات بشعرهن الأسود الطويل تارة إلى اليمين، وتارة إلى الشمال، وخصوصا إلى الأمام فيما أيديهن تبدو كما لو أنها تريد أن ترفرف في الهواء. آمال ترقص متمايلة برأسها وجسمها، لكن من غير أن تجلس على

الأرض أو تنضم إليهن...»[37]. كان هذا كله في جموع من الناس الملتفين حول ضريح الولي وهم يتناولون الكسكسي المغطى باللحم والخضر.

ألا يذكرنا هذا الرقص برقص جازية بن هدوقة مع الدراويش في الزردات التي كانت تقام في الدشرة ؟ لم تكن آمال الغبريني إذا شخصية عادية ولا اعتباطية جاء بها إبراهيم سعدي في روايته هذه من أجل لا شيء، وإنما كانت ذات بعد أكبر من أن تكون مجرد طالبة جميلة. هي شعاع ساطع كسطوع أشعة نجمة كاتب ياسين، وهي شيء أسطوري مقدس كقداسة جازية عبد الحميد بن هدوقة. يقول عنها وناس خضراوي في رسالته الموجهة إلى المهدي المغراني في الصفحات الأخيرة من الرواية: « لن تنال شيئا من آمال، المهدي، آمال طائر يحلق في آفاق بعيدة لا متناهية. نجم مشع، سيار، غير قابل للإمساك، نور مضيء لا أحد يستطيع أن يملكه لنفسه، حلم غير قابل للتحقيق، وهم ساحر، لكنه مستحيل المنال، عنها بحثت في الجزائر، في تونس، في إيطاليا، في إفريقيا، لكن عبثا. كنت أصل دائما متأخرا وسأظل أصل دائما متأخرا في الحقيقة. وأنا اليوم أعرف بأنني سأموت بحثا عنها »[38].

من هذا المنطق، نكتشف أن «آمال الغبريني » ما هي إلا رمز للجزائر التي خلفتها فرنسا بعد رحيلها عنها، فلم تمكث في يد الأمازيغي أمقران ولم يستقر حالها مع الرجل المنتمي إلى الجماعات الإسلامية المسلحة إذ مات وتركها وحيدة لأنه لم يتسلم مقاليدها أصلا وظلت حرة تناشد يدا قوية تقودها إلى بر الأمان.

هي الجزائر التي «يسمح فيها الجزائري لتكون في يد غيره، بينما كانت قريبة منه سهلة المنال، لكنه يعجز عن امتلاكها والمحافظة عليها، وحين تفر منه، يظل يفتش عنها في جميع الأمكنة. هي الجزائر لما تتحول إلى أمل نهواه ويطيب لنا أن تمتزج أرواحنا به، وأن يكون أمامنا لأننا به نعرف الاستقرار والأمان، لكننا حين نسمح فيه ويكون بيد غيرنا، نهرع للبحث عنه من مكان إلى آخر حتى نؤول إلى نهاية مفجعة كما كان حال وناس خضراوي الذي زوّجها مرتين فارتدت أنظمة لا تمت إليها بصلة ولم تمكث فيها، غير أنه بقي يلاحقها إلى أن لقي حتفه»[39].

إن موقع وناس خضراوي داخل هذه الرواية كموقع الأخضر بن الجبايلي في رواية « الجازية والدراويش »فبينما استطاع الأخضر بن الجبايلي

المحافظة على الجازية فلم يقدر أحد على الوصول إليها، ضيّع وناس خضراوي آمال الغبريني وظل يبحث عنها من مكان إلى آخر.

ومن هنا، تشير الرواية إلى «الفئة المثقفة، السلبية، التي لا تتقلد مقاليد الحكم، بل تبتعد عنه، وتفسح المجال إلى غيرها لتتسلمه، بل هي على استعداد لتسليم الجزائر إلى يد غيرها، وفي الوقت نفسه الذي تفعل فيه ذلك، تتذكر أنها ضيّعت شيئا نفيسا لا يوزن بموازين الحياة، فتسعى إلى استدراكه بعد فوات الأوان»[40].

هذه هي هوية الجزائر كما تبدو من خلال هذه الرواية، جزائر الحرية التي تأبى أن تكون في يد أحد، ملجأ للأفارقة، وحلم لأبنائها بالإطباق عليها ولكنها تبق شامخة في الأفق البعيد، تنادي قوة جبارة تنتشلها من خمولها وتأخرها لتأخذ بيدها إلى عالم الحضارة والتقدم من دون أن تمس عنصرا ما من هويتها وأصالتها.

الهوامش:

---

(1)- أبو قاسم سعد الله، "دراسات في الأدب الجزائري الحديث "، الدار التونسية للنشر، تونس ط1، (د.ت)، ص 21.

(2)- المرجع نفسه، ص 21.

(3)- د.أحمد منور، " ملامح أدبية " (دراسات في الرواية الجزائرية)، دار الساحل للنشر والتوزيع، الجزائر 2008م، ص 15.

(4)- إبراهيم سعدي، "بحثا عن آمال الغبريرني"،منشورات اتحاد الكتاب الجزائرييننسنة2004م.

(5)- د.أحمد منور، " ملامح أدبية " (دراسات في الرواية الجزائرية)، ص 167.

(6)- انظر المرجع نفسه، ص 167.

(7)- بول ريكور،"الوجود والزمن والسرد "، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،ط1 1999م، ص 52.

(8)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريرني "، ص 46.

(9)- انظر المصدر نفسه، ص 57.

(10)- المصدر نفسه، ص 262.

(11)- المصدر نفسه، ص 151.

(12)- المصدر نفسه، ص 54.

(13)- المصدر نفسه، ص 47، 48.

(14)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريني "، ص 154.

(15)- المصدر نفسه، ص 45.
(16)- المصدر نفسه، ص 45.
(17)- المصدر نفسه، ص 48.
(18)- المصدر نفسه، ص122.
(19)- المصدر نفسه، ص 149.
(20)- المصدر نفسه، ص 121.
(21)- المصدر نفسه، ص 55.
(22)- المصدر نفسه، ص 153.
(23)- انظر قيس النوري،"الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا"، عالم الفكر، المجلد العاشر ع1، 1979م، ص 14- 18.
(24)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريرني "، ص203، 204.
(25)- المصدر الساب، ص 204.
(26)- محمد زكي العشماوي، " الأدب وقيم الحياة المعاصرة "، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1980م، ص 51، 52.
(27)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريرني "، ص 120.
(28)- المصدر نفسه، ص 119.
(29)- المصدر نفسه، ص 118.
(30)- المصدر نفسه، ص 120.
(31)- انظر قيس النوري، " الاغتراب اصطلاحا ومفهومها وواقعا "، مجلة عالم الفكر، العدد السابق، ص 14- 18.
(32)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريني "، ص 45، 46.
(33)- المصدر نفسه، ص 157، 158.
(34)- انظر المصدر نفسه، ص 115، 116، 142، 143، 156، 226، 267.
(35)- بول ريكور، " الوجود والزمن والسرد "، تر:سعيد الغانمي، ص 52.
(36)- انظر" محمد عجينة، " موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها "، ج2، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1994م، ص 196.
(37)- إبراهيم سعدي، " بحثا عن آمال الغبريني "، ص 159.
(38)- المصدر نفسه، ص 249.
(39)- د.حوريةبوشريخة، " صورة الجزائر – المرأة في الرواية الجزائرية "، (ملتقى الجلسات الوطنية للأدب الجزائري)، بتاريخ 11، 12، 13 ديسمبر 2012م، جامعة الجزائر2.
(40)- المرجع نفسه.